الفصل الخامس

صِفَاتُ الرُّسُل

صِفَاتُ الرُّسُل

البشريّة

شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم ، ﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ « سورة الكهف/١١٠ » .

أهلية البشر لتحمّل الرسالة

الذين يستعظمون ويستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمّل الرسالة لا يقدرون الإنسان قدره ، فالإنسان مؤهل لتحمّل الأمانة العظمى ، أمانة الله التي أشفقت السموات والارض والجبال من حملها ، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (سورة الأحزاب/٧٢) .

والذين استعظموا اختيار الله البشر رسلاً نظروا إلى المظهر الخارجي للإنسان ، نظروا إليه على أنه جسد يأكل ويشرب وينام ، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته ﴿ وَقَالُوا : مَـا لِـهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ « سورة الفرقان/٧ » ولم ينظروا إلى جوهر الإنسان ، وهو تلك الروح التي هي نفخة من روح الله ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُه ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ « سورة الحجر/٢٩ » . وبهذه الروح تميز الإنسان ، وصار إنسانا ، واستخلف في الأرض ، وقد أودعه الله الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته ، فلا عجب أن يختار الله واحدا من هذا الجنس ، صاحب استعداد للتلقي ، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلّما غام عليهم الطريق ، وما

يقدم به إليهم العون كلّما كانوا بحاجة إلى العون[1] ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ « سورة إبراهيم/١١ » .

ثمَّ إنّ الرسل يُعدّون إعدادا خاصّا لتحمُّل النبوّة والرسالة ويصنعون صنعا فريدا ﴿ واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي ﴾ (سورة طه /٤١ » ، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ ، كيف رعاه الله وحاطه بعنايته على الرغم من يتمه وفقره ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ « سورة الضحى/٦ ـ ٨ » وقد زكّاه وطهّره وأذهب عنه رجس الشيطان وأخرج منه حظّ الشيطان مذ كان صغيرا ، فعن أنس أنّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشقّ عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظّ الشيطان منك ، ثمَّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثمَّ لأمه ، وأعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه[2] ، يعني ظئره ، فقالوا : إنّ محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون ، قال أنس : فكنت أرى أثر المخيط في صدره » رواه مسلم[3] .

وحدث قريب من هذا عندما جاءَه جبريل يهيئه للرحلة الكبرى للعروج به إلى السموات العلا ، ففي حديث الإسراء : « فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدري ، ثمَّ غسله بماء زمزم ، ثمَّ جاء بطست ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغها في صدري ، ثمَّ أطبقه » متفق عليه[4] .

لِمَ لَمْ يكن الرسل ملائكة ؟

لقد كثر اعتراض أعداء الرسل على بعثة الرسل من البشر ، وكان هذا الأمر من أعظم ما صدَّ الناس عن الإيمان ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى

---

(١) في ظلال القرآن ١٩/٢٥٥٢ .

(٢) أمّه من الرضاع وهي حليمة السعدية .

(٣) مشكاة المصابيح (٣/١٥٢) .

(٤) صحيح الجامع الصغير (٤/٨١) .

﴿ إلاّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ « سورة الإسراء/ ٩٤ » وعدوا اتباع الرسل بسبب كونهم بشرا فيما جاءوا به من عقائد وشرائع أمرا قبيحا ، وعدُّوه خسرانا مبينا ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ « سورة المؤمنون/ ٣٤ » ، ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ؟ إِنّا إِذاً لَفي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ « سورة القمر/ ٢٤ » وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم ، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسولا من الملائكة ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لقاءَنا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ « سورة الفرقان/ ٢١ » . « وَقَالُوا : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ، لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ ملك فَيَكُون معهُ نَذِيراً ﴾ « سورة الفرقان/ ٧ » .

وعندما نتأمّل النصوص القرآنية يمكننا أن نردّ على هذه الشبهة من وجوه :

الأول : أن الله اختارهم بشرا لا ملائكة لأنّه أعظم في الابتلاء والاختبار ، ففي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم في صحيحه : « إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك »[1] .

الثاني : أن في هذا إكراما لمن سبقت لهم منه الحسنى ، فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلا تكريم وتفضيل ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا . . . ﴾ « سورة مريم/ ٥٨ » .

الثالث : أنّ البشر أقدر على القيادة والتوجيه ، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة ، يقول المرحوم سيد قطب في هذا : « وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر ، واحد من البشر يحسّ بإحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم . . . ، ومن ثمَّ يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري ص : ٢٨٣ .

قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ، لأنّه في النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق .

وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة، لأنّه بشر مثلهم ، يتسامى بهم رويدا رويدا ، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أنَّ الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ، فيكون بشخصه ترجمة حيّة للعقيدة التي يحملها إليهم ، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ، ينقلونها سطرا سطرا ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة في إنسان »[1] .

الرابع : صعوبة رؤ ية الملائكة ، فالكفار عندما يقترحون رؤ ية الملائكة ، وأن يكون الرسل إليهم ملائكة ـ لا يدركون طبيعة الملائكة ، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك .

فالاتصال بالملائكة ورؤ يتهم أمر ليس بسهل ،فالرسول ـ ﷺ ـ مع كونه أفضل الخلق ، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول عظيم ورجع إلى منزله يرجف فؤ اده ، وقد كان ﷺ يعاني من اتصال الوحي به شدّة ، ولذلك قال في الردّ عليهم ﴿ **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ** ﴾ ، « سورة الفرقان/٢٢ » ، ذلك أنَّ الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب ، فلو قدّر أنّهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم .

فكان إرسال الرسل من البشر ضروريا كي يتمكنوا من مخاطبتهم ، والفقه عنهم ، والفهم منهم ، ولو بعث الله رسله إليهم من الملائكة لما أمكنهم ذلك . ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ؟ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً** ﴾ « سورة

---

(١) في ظلال القرآن ٢٥٥٣/١٩ .

الإسراء/٩٤/٩٥ » فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم رسولا من جنسهم ، أما وأن الذين يسكنون الأرض بشر فرحمة الله وحكمته تقتضي أن يكون رسولهم من جنسهم ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ « سورة آل عمران/١٦٤ » .

واذا كان البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة والتلقي عنهم بيسر وسهولة فيقتضي هذا ـ لو شاء الله أن يرسل مَلكا رسولا إلى البشر ـ أن يجعله رجلا ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ « سورة الأنعام/٩ » فالله يخبر أنه « لو بعث رسولا ملكياً ، لكان على هيئة رجل ، ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس الأمر عليهم »[1] .

والتباس الأمر عليهم بسبب كونه في صورة رجل ، فلا يستطيعون أن يتحققوا من كونه ملكا ، وإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو ، بل إرسالهم من الملائكة على هذا النحو لا يحقق الغرض المطلوب ، لكون الرسول الملك لا يستطيع أن يحس بإحساس البشر وعواطفهم وانفعالاتهم وإن تشكل بأشكالهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٩ .

مقتضى بشريّة الأنبياء والرسل

ومقتضى كونهم بشرا أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفكُّ عنها البشريّة ، فمن ذلك كونهم جسدا يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب ، ويحدثون كما يحدث البشر ، لأنَّ ذلك من لوازم الطعام والشراب ، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** ﴾ « سورة الأنبياء/٧ ـ ٨ » .

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر ، لهم آباء وأمهات ، وأعمام وعمات ، وأخوال وخالات ، يتزوجون ويولد لهم ، ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** ﴾ « سورة الرعد/٣٨ » .

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض ، فهم ينامون ويقومون ، ويصحون ويمرضون ، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت ، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن لربّه : ﴿ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ « سورة الشعراء/٧٩ ـ ٨١ » . وقال الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** ﴾ « سورة الزمر/٣٠ » وقال مبينا أنَّ هذه سنته في الرسل كلهم : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ « سورة آل عمران/١٤٤ » وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: «كان بشرا من البشر :يفلي ثوبه ويحلب شاته ،ويخدم نفسه »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب المفرد ، وإسناد أحمد صحيح على شرط مسلم (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم ٦٧١) .

وقد صحّ أنَّ الرسول ﷺ قال لأمّ سليم : « يا أم سليم ، أما تعلمين أني اشترطت على ربّي ، فقلت : إنّما أنا بشر ؛ أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيّما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها طهورا وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة »[1].

تعرض الأنبياء للبلاء

ومن مقتضى بشرية الرسل أنّهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر ، فقد يسجنون كما سجن يوسف ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ « سورة يوسف/٣٣ » وذكر الله أنه ﴿ **لَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ « سورة يوسف/٤٢ » وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يدمونهم ، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أحد فأدموه ، وكسروا رباعيته ، وقد يخرجونهم من ديارهم كما هاجر إبراهيم من العراق الى الشام ، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة ، وقد يقتلونهم ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ** ﴾ « سورة البقرة/٨٧ » وقد يصابون بالأمراض ، كما ابتلى الله نبيّه أيوب فصبر ، وقد صحَّ عن الرسول ﷺ : « أنَّ نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلّا رجلين من إخوانه . . »[2] . وكان من ابتلائه أن ذهب أهله وماله ، وكان ذا مال وولد كثير ، ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ** ﴾ «سورة الأنبياء/٨٣ ـ ٨٤ »

والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب ، بل هم أشدُّ الناس بلاءً ، فعن الصعب ابن سعد عن أبيه قال : قلت لرسول الله ﷺ : أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : الأنبياء ، ثمَّ الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٨٤) .

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده ، وأبو نعيم في الحلية ، والضياء في المختارة ، وابن حبان في صحيحه (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٧) .

حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة »[1] .

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يوعك ، فوضع يده على الرسول ﷺ ، فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف ، فقال : يا رسول الله ، ما أشدها عليك ! قال : « إنا كذلك ، يضعف علينا البلاء ، ويضعف لنا الأجر » ، قلت : يا رسول الله ، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : « الأنبياء ، ثمَّ الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر ، حتى ما يجد إلا العباءَة التي يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء »[2][3] .

اشتغال الأنبياء بأعمال البشر

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر ، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة ، قبل البعثة ، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم ، فقد روى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنّا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث[4] ، وأنَّ رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالأسود منه فإنّه أطيبه » ، قالوا : أكنت ترعى الغنم ؟ قال : « وهل من نبي إلا وقد رعاها » رواه البخاري في صحيحه[5] ، ومن الأنبياء الذين نصَّ القرآن على أنّهم رعوا الغنم نبيّ الله موسى عليه السلام ، فقد عمل في ذلك عدَّة سنوات ، فقد قال له العبد الصالح : ﴿ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ احْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ،

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وأحمد ، وابن ماجة وغيرهم (سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٤٣) .

(٢) اخرجه ابن ماجة ، وابن سعد والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال الشيخ ناصر وهو كما قالا (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ١٤٤) .

(٣) إذا كان هذا حال الأنبياء فينبغي للصالحين أن يعتبروا بذلك ولا يظنون بالله غير الحقّ إذا أصابهم البلاء ، وعلى الذين يرمون الصالحين بالتهم الباطلة لأنّهم أصيبوا بالبلاء أن يقصروا عن غيهم .

(٤) الكباث : ثمر الأراك ، ويقال ذلك للنضيج منه .

(٥) انظر فتح البارى (٤٣٨/٦) .

واللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ « سورة القصص/٢٧ ـ ٢٨ » قال ابن حجر : والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع ، وتعتاد قلوبهم بالخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم(١).

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام ، فقد كان حدّادا يصنع الدروع ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ « سورة الأنبياء/ ٨٠ » ، كان حدادا ، وفي نفس الوقت كان ملكا ، وكان يأكل مما تصنعه يداه .

ونبيّ الله زكريا كان يعمل نجّارا(٢) .

ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية

ومقتضى كونهم بشرا أنهم ليسوا بآلهة ، وليس فيهم من صفات الألوهّية شيء ، ولذلك فإنّ الرسل يتبرءون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد ، ولا يدعون شيئا من صفات الله تعالى ، قال تعالى مبينا براءَة عيسى مما نسب إليه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ « سورة المائدة/١١٦ ـ ١١٧ » .

هذه مقالة عيسى في الموقف الجامع في يوم الحشر الأكبر ، وهي مقولة صدق تنفي تلك الأكاذيب والترهات التي وصف بها النصارى عبد الله ورسوله عيسى فطائفة قالت : الله هو المسيح بن مريم حلَّ في بطن مريم ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ « سورة المائدة/٧٢ » وأخرى قالت هو ثالث

---

(١) فتح الباري (٤٣٩/٦) .

(٢) ثبت ذلك في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه (انظر مشكاة المصابيح ١١٧/٣) .

ثلاثة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾«سورة المائدة/٧٣ » وطائفة ثالثة قالوا هو ابن الله تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . . ﴾ « سورة مريم/٨٨ ـ ٨٩ » لقد غلا النصارى في عيسى غلوّاً عظيما ، وهم بمقالتهم الغالية هذه يَسبُّون الله أعظم سبّ وأقبحه ، فهم يزعمون : « أنّ ربَّ العالمين نزل عن كرسي عظمته ، فالتحم ببطن أنثى ، وأقام هناك مدةً من الزمان ، بين دم الطمث في ظلمات الأحشاء ، تحت ملتقى الأعكان ، ثمَّ خرج صبيا رضيعا يشبُّ شيئا فشيئا ، ويبكي ، ويأكل ، ويشرب ، ويبول ، ويتقلب مع الصبيان ، ثمَّ أودع المكتب بين صبيان اليهود ، يتعلم ما ينبغي للإنسان ، هذا وقد قطعت منه القلفة حين الختان ، ثمَّ جعل اليهود يطردونه من مكان إلى مكان، ثمَّ قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذلّ والهوان ، فعقدوا على رأسه من الشوك تاجا من أقبح التيجان ، وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان ، ثمَّ ساقوه إلى خشبة الصلب مصفوعا مبصوقا في وجهه ، وهم خلفه وأمامه وعن شمائله والأيمان ، ثمَّ أركبوه ذلك المركب الذي تقشعرُّ منه القلوب مع الأبدان ، ثمَّ شدّت بالحبال يده مع الرجلان ، ثمَّ خالطهما تلك المسامير ، التي تكسر العظام ، وتمزق اللحمان ، وهو يستغيث ، ويقول : ارحموني ، فلا يرحمه منهم إنسان ، هذا وهو مدبر العالم العلوي والسفلي ، الذي يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ، ثمَّ مات ودفن في التراب تحت صم الجنادل والصوّان ، ثمَّ قام من القبر وصعد الى عرشه وملكه بعد أن كان ما كان »[1].

فأيّ سبّ أعظم من هذا السبّ الذي نسبوه إلى الباري جل وعلا ! وأي ضلال أعظم من هذا الضلال ! .

الكمال البشري

لا شكَّ أن البشر يتفاوتون فيما بينهم تفاوتا كبيرا في الخَلْق والخُلُق ، والمواهب ، فمن البشر القبيح والجميل وبين ذلك ، ومنهم الأعمى والأعور

---

(١) هداية الحيارى (انظر الجامع الفريد ص ٤٧٩) .

والمبصر بعينيه ، والمبصرون يتفاوتون في جمال عيونهم وفي قوة ابصارهم ، ومنهم الأصم والسميع وبين ذلك ، ومنهم ساقط المروءة ومنهم ذو المروءة والهمة العالية .

ولا شكَّ أنَّ الأنبياء والرسل يمثلون الكمال الانساني في أرقى صوره ، ذلك أنَّ الله اختارهم واصطفاهم لنفسه ، فلا بدَّ أن يختار أطهر البشر قلوبا ، وأزكاهم أخلاقا ، وأجودهم قريحة ، ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ « سورة الأنعام/ ١٢٤ » .

الكمال في الخلقة الظاهرة

لقد حذرنا الله تعالى من ايذاء الرسول ـ ﷺ ـ كما آذى بنو اسرائيل موسى ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا . .** ﴾ « سورة الأحزاب/ ٦٩ » .

وقد بين لنا رسولنا ﷺ أن ايذاء بني إسرائيل لموسى كان باتهامهم إياه بعيب خلقي في جسده ، ففي صحيح البخاري[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ موسى كان رجلاً حييًا ستّيرا لا يرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلّا من عيب بجلده[2] : إمّا برص ، وإمّا أدرة[3] ، وإمّا آفة ، وإنَّ الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوما وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ، ثمَّ اغتسل ، فلمّا فرغ ، أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإنَّ الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عريانا أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إنَّ بالحجر لندْبَاً من أثر ضربه ، ثلاثا أو أربعا أو خمسا ، فذلك قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ، فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا** ﴾ « سورة الأحزاب/ ٦٩ » .

---

(١) رواه البخاري انظر فتح البارى (٦/٤٣٧) .

(٢) هذا يوحى بأن اغتسال بني إسرائيل عراة كان جائزاً في شريعتهم .

(٣) الأدرة بضم الهمزة وسكون الدال .

قال ابن حجر العسقلاني معقبا على الحديث : « وفيه أن الأنبياء في خَلقهم وخُلُقهم ، على غاية الكمال ، وأن من نسب نبيًا إلى نقص في خلقته فقد آذاه ، ويخشى على فاعله الكفر »[1].

الصور الظاهرة مختلفة

ليس معنى كون الرسل أكمل الناس أجساما أنهم على صفة واحدة وصورة واحدة ، فالكمال الذي يدهش ويعجب متنوع وذلك من بديع صنع الواحد الأحد وكمال قدرته .

وقد وصف لنا الرسول ـ ﷺ ـ بعض الأنبياء والرسل ، يقول ﷺ : « ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضَرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة »[2] .

وقال في عيسى : « ليس بيني وبينه نبيٌّ ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل »[3] .

وقد وصف لنا الصحابة رسولنا ـ ﷺ ـ فمن ذلك قولهم : « كان أحسن الناس . . ربعة ، إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين ، أسيل الخدين ، شديد سواد الشعر ، أكحل العينين ، أهدب الأشفار ، إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها ، ليس له أخمص ، إذا وضع رداءه عن منكبيه فكأنّه سبيكة فضة »[4] .

الكمال في الأخلاق

لقد بلغ الأنبياء في هذا مبلغا عظيما ، وقد استحقوا أن يثني عليهم ربّ الكائنات فقد أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

---

(١) فتح الباري ٦/٤٣٨ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه (انظر فتح الباري ٦/٤٢٨) وشنوءه حيّ من اليمن ،

(٣) رواه أبو داود وأحمد (انظر صحيح الجامع ٥/٩٠) . وقوله « ممصرتين » الممصرة من الثياب التي فيها صفرة خفيفة . راجع لسان العرب (٣/٤٩٣) مادة مصر .

(٤) رواه البيهقي انظر صحيح الجامع (٤/١٩٩)

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ، « سورة هود/٧٥ » .

وقالت ابنة العبد الصالح تصف موسى : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ « سورة القصص/٢٦ » .

واثنى الله على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ « سورة مريم/٥٤ » .

وأثنى الله ـ جلَّ جلاله ، وتقدست أسماؤه ـ على خلق نبينا محمد ـ ﷺ ـ ثناءً عطرا ، فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ « سورة القلم/٤ » .

فقد وصف الله ـ سبحانه ـ خلق نبينا محمد ـ ﷺ ـ بأنّه عظيم ، وأكّد ذلك بثلاثة مؤكدات : أكدَّ ذلك بالإقسام عليه بنون والقلم وما يسطرون ، وتصديره بإنَّ ، وادخال اللام على الخبر .

ومن خلقه الكريم ـ ﷺ ـ الذي نوه الله به ما جبله عليه من الرحمة والرأفة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ « سورة التوبة/١٢٨ » .

وقد كان لهذه الأخلاق أثر كبير في هداية الناس وتربيتهم ، هذا صفوان بن أميّة يقول : لقد أعطاني رسول الله ـ ﷺ ـ ما أعطاني وإنه لأبغض خلق الله إليّ فما زال يعطيني حتى إنّه من أحبِّ الناس إليّ « رواه مسلم في صحيحه » .

وفي صحيح مسلم أنَّ رجلا سأل الرسول ﷺ فأعطاه قطيعا من الغنم بين جبلـين ، فجاء الرجل قومه وقال لهم : أسلموا فإنَّ محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

ولو لم يتصف الرسل بهذا الكمال الذي حباهم الله به لما انقاد الناس لهم ، ذلك أن الناس لا ينقادون عن رضا وطواعية لمن كثرت نقائصه ، وقلت فضائله

خير الناس نسبا

الرسل ذوو أنساب كريمة ، فجميع الرسل بعد نوح من ذريته ، وجميع الرسل بعد إبراهيم من ذرية إبراهيم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ . .﴾ « سورة الحديد/٢٦ » .

ولذلك فإنَّ الله ـ سبحانه ـ يصطفي لرسالته من كان خيار قومه في النسب ، وفي الحديث الذي يرويه البخاريُّ ، يقول الرسول ﷺ : « بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذي كنت منه »(١) .

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي عن الرسول ،ﷺ : قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنَّ الله ـ تعالى ـ خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثمَّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثمَّ جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا ، وخيركم نفساً »(٢) .

وفي صحيح مسلم وسنن النسائي : « إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من كنانة قريش ، واصطفى من قريش بني هاشم » .

أحرار بعيدون عن الرق

ومن صفات الكمال أنَّ الأنبياء لا يكونون أرقاء يقول السفاريني في هذا : « الرقُّ وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، والنبي يكون داعيا للناس آناء الليل وأطراف النهار ، والرقيق لا يتيسر له ذلك ، وأيضا الرقيّة وصف نقص يأنف الناس ويستنكفون من اتباع من اتصف بها ، وأن يكون إماما لهم وقدوة ، وهي أثر الكفر ، والأنبياء منزهون عن ذلك »(٣)(٤) .

---

(١) رواه البخاري (فتح الباري ٥٦٦/٦)

(٢) رواه احمد والترمذي (صحيح الجامع ٢٢/٢)

(٣) لوامع الأنوار البهية ص ٢٦٥/٢ .

(٤) قد يعترض على هذا بأنّ رسول الله يوسف باعه الذين استنقذوه من البئر وبذلك أصبح عبدا ، والاجابة على ذلك أنَّ العبودية هنا كانت نوعا من الابتلاء والاّ فهو حرٌّ وقع عليه الظلم ، ولم تستمر هذه العبودية طويلا ، وأبد له الله بها ملكا .

المواهب والقدرات

الأنبياء أعطوا العقول الراجحة ، والذكاء الفذ ، واللسان المبين ، والبديهة الحاضرة ، وغير ذلك من المواهب والقدرات التي لا بدَّ منها لتحمل الرسالة ثم ابلاغها ومتابعة الذين تقبلوها بالتوجيه والتربية .

لقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يحفظ ما يلقى إليه ولا ينسى منه كلمة ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ « سورة الأعلى/٦ » .

وقد كانوا يعرضون دين الله للمعارضين ويفحمونهم في معرض الحجاج ، وفي هذا المجال أسكت إبراهيم خصمه ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ « سورة البقرة/ ٢٥٨ » وقال الله معقبا على محاججة إبراهيم لقومه : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ « سورة الأنعام/٨٣ » .

وموسى كان يجيب فرعون على البديهة حتى انقطع ، فانتقل إلى التهديد بالقوة . ﴿قَالَ فِرْعَونُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِين ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ! قَالَ رَبُّكمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِين ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ « سورة الشعراء/ ٢٣ ـ ٢٩ » .

تحقيق العبودية

بينا الكمال الذي حبا الله به رسله في صورهم الظاهرة ، وأخلاقهم الباطنة ، والمواهب والسجايا التي أعطاهم إياها في ذوات أنفسهم ، وهناك نوع آخر من الكمال وفق الله رسله وأنبياءَه لتحصيله ، وهو تحقيق العبودية لله في أنفسهم .

فكلّما كان الإنسان أكثر تحقيقا للعبوديّة لله تعالى ، كلَّما كان أكثر رقيّا في سلّم الكمال الإنساني ، وكلما ابتعد عن تحقيق العبودية لله كلما هبط وانحدر .

والرسل حازوا السبق في هذا الميدان ، فقد كانت حياتهم انطلاقة جادة في

تحقيق هذه العبودية ، وهذا خاتم الرسل وسيد المرسلين يثني عليه ربّه في أشرف المقامات بالعبودية ، فيصفه بها في مقام الوحي ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ « سورة النجم/ ١٠ » وفي مقام إنزال الكتاب ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ « سورة الفرقان/ ١ » وفي مقام الدعوة ﴿وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ « سورة الجن/ ١٩ » وفي مقام الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ . .﴾ « سورة الإسراء/ ١ » وبهذه العبودية التامّة استحق صلوات الله وسلامه عليه التقديم على الناس في الدنيا والآخرة ، ولذلك فإنّ المسيح عليه السلام يقول للناس إذا طلبوا منه الشفاعة بعد طلبها من الرسل من قبله ـ يقول . « اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » متفق عليه[1] .

واليك صورة من صور هذه العبودية ترويها لنا أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت رضي الله عنها وعن أبيها : « قلت يا رسول الله ، كُلْ ـ جعلني الله فداك ـ متكئا ، فإنّه أهون عليك ، فأحنى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ، وقال : بل آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » رواه البغوي في شرح السنة ، وابن سعد ، والامام أحمد في الزهد[2] .

الذكورة

ومن الكمال الذي حباهم به أنه اختار جميع الرسل الذين أرسلهم من الرجال ، ولم يبعث الله رسولا من النساء يدلُّ على ذلك صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ « سورة الأنبياء/ ٧ » .

الحكمة من كون الرسل رجالا

كان الرسل من الرجال دون النساء لحكم يقتضيها المقام فمن ذلك :

---

(١) تخريج الطحاوية انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٧ .

(٢) انظر صحيح الجامع الصغير (١٢٢/١)

١ ـ أنَّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة ، ومخاطبة الرجال والنساء ، ومقابلة الناس في السرّ والعلانية ، والتنقل في فجاج الأرض ، ومواجهة المكذبين ومحاججتهم ومخاصمتهم ، واعداد الجيوش وقيادتها ، والاصطلاء بنارها ، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء .

٢ ـ الرسالة تقتضي قوامة الرسول على من يتابعه ، فهو في أتباعه الآمر الناهي ، وهو فيهم الحاكم والقاضي ، ولو كانت الموكلة بذلك امرأة لم يتمّ ذلك على الوجه الأكمل ، ولاستنكف أقوام من الاتباع والطاعة .

٣ ـ الذكورة أكمل كما بينا آنفا ، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ « سورة النساء/٣٤ » وأخبر الرسول ـ ﷺ ـ أنَّ النساء ناقصات عقل ودين .

٤ ـ المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات ، كالحيض والحمل والولادة والنفاس ، وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع ، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية ، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها .

نُبوَّة النِّسَاء

ذهب بعض العلماء[1] إلى أنَّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوة ، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم[2] .

والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم ، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها ويعدّون من النساء النبيات : حواء وسارة وأمّ موسى وهاجر وآسية .

وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء ، قالوا نحن لا نخالف في ذلك ، فالرسالة للرجال ، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني ، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول ، لأنَّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ، يعمل بها ، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين .

أدلتهم :

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء ، فمن ذلك أنه أوحى إلى أمّ موسى : ﴿**وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ « سورة القصص/٧ » وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**

---

(١) يزعم اليهود أن مريم أخت موسى وهارون كانت نبيّة (لوامع الأنوار البهيّة ٢/٢٦٦)

(٢) انظر فتح الباري ٦/٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٦/٤٧٣ ، وانظر لوامع الأنوار البهية ٢/٢٦٦ .

فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ، قَالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً . . . ﴾ « سورة مريم/١٧ ـ ١٨ » وخاطبتها الملائكة قائلة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْيَمُ اقْنتي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . . . ﴾ « سورة آل عمران/٤٢،٤٣ »

فأبو الحسن الأشعري يرى أنَّ كلَّ من جاءَه الملك عن الله ـ تعالى ـ بحكم من أمر أو نهي أو باعلام فهو نبي[1] ، وقد تحقق في أمِّ موسى ومريم شيء من هذا ، وفي غيرهما أيضا ، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنصّ القرآن .

واستدلوا أيضا باصطفاء الله لمريم على العالمين ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ « سورة آل عمران/٤٢ » وبقوله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران »[2] .

قالوا : الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء .

الردّ عليهم

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لاثبات نبوة النساء ، والردُّ عليهم من وجوه :

الأوّل : أننا لا نسلّم لهم أنَّ النبيّ غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس ، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبيِّ والرسول في هذا ، وأنَّ الفرق واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق .

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في ارسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء ، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة .

الثاني : قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة أم موسى وآسية . . إنّما وقع مناما ، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون مناما ، وهذا يقع لغير الأنبياء .

---

(١) فتح الباري ٦/٤٤٧ .

(٢) حديث متفق عليه (انظر مشكاة المصابيح ٣/١١٨)

الثالث : لا نسلم لهم قولهم أن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي ، ففي الحديث أن الله أرسل ملكا لرجل يزور أخا له في الله في قرية أخرى ، فسأله عن سبب زيارته له ، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله ، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه ، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة ، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول - ﷺ - والصحابة يشاهدونه ويسمعونه .[1] .

الرابع : أنَّ الرسول - ﷺ - توقف في نبوة ذي القرنين مع اخبار القرآن بأنَّ الله أوحى إليه ﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ، وإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنا﴾ « سورة الكهف/٨٦ » .

الخامس : لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم ، فالله قد صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِن عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ « سورة فاطر/٣٢ » واصطفى آل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ومن آلهمَا من ليس بنبيٍّ جزما ﴿إِنَّ اللّه اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ « سورة آل عمران/٣٣ » .

السادس : لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة ، لأنّه يطلق لتمام الشيء ، وتناهيه في بابه ، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء ، وعلى ذلك فالكمال هنا كمال غير الأنبياء .

السابع : ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات[2] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة .

الثامن : ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلّا ما كان من مريم ابنة عمران[3] ، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية ،

---

(١) ارجع في هذه النصوص والنصوص المشابهة لها إلى الجزء الثاني من هذه السلسلة « عالم الملائكة الأبرار» .
(٢) الحديث أخرجه ابن مردويه ، انظر البداية والنهاية (٢/٦١)
(٣) رواه أحمد وأسناده جيد ، فتح الباري (٦/٤٧٧)

لأنَّ فاطمة ليست بنبيّة جزما ؛ وقد نصَّ الحديث على أنها أفضل من غيرها ، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة .

التاسع : وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والاخبار بفضلها ، قال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ﴾ « سورة المائدة/٧٥ » ، فلو كان هناك وصفا أعلى من ذلك لوصفها به ، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح اخبار بنبوة واحدة من النساء .

وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أنّ مريم ليست بنبيّة ، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنّه نقل الاجماع على أنَّ مريم ليست نبيّة[1] ، ونسبه في « شرح المهذب » لجماعة ، وجاء عن الحسن البصري : ليس في النساء نبيّة ولا في الجنّ[2] .

---

(١) الاجماع لا يتم بعد معرفة من خالف في ذلك من العلماء إلا أن يكون إجماعا سابقا على هذا الخلاف .

(٢) فتح الباري ٦/٤٧١ ، ٤٧٣ .

أمور تفرد بها الأنبياء دون البشر

١ ـ الوحي

خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ . « سورة الكهف/ ١١٠ » .

وهذا الوحي يقتضي عدة أمور يفارقون بها الناس ، فمن ذلك تكليم الله بعضهم واتصالهم ببعض الملائكة ، وتعريف الله لهم شيئا من الغيوب الماضية أو الآتية ، واطلاع الله لهم على شيء من عالم الغيب .

فمن ذلك الإسراء بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات العلا ، ورؤ يته للملائكة والأنبياء ، واطلاعه على الجنّة والنار ، ومن ذلك رؤ يته للمعذبين في قبورهم وسماعه تعذيبهم ، وفي الحديث : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر »[1].

٢ ـ العصمة

وقد خصصنا لهذا الأمر فصلا مستقلاً .

٣ ـ الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم

ومما اختصهم الله تعالى به أنّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام ، فعن أنس في حديث الإسراء : « والنبيُّ نائمة عيناه ، ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي (صحيح الجامع الصغير ٥/٧٥)

ولا تنام قلوبهم » رواه البخاري في صحيحه[1] ، وهذا وإن كان من قول أنس إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول ابن حجر[2] ، وقد ورد هذا من قول الرسول ﷺ ، فقد صحّ عنه أنّه قال : « إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » ، وقال ﷺ عن نفسه : « إنَّ عيني تنامان ولا ينام قلبي »[3] .

٤ ـ تخيير الأنبياء عند الموت

مما تفرد به الأنبياء أنَّهم يخيَّرون بين الدنيا والآخرة ، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ما من نبي يمرض إلّا خيّر بين الدنيا والآخرة»[4] ،وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحّة شديدة ، فسمعته يقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين » فعلمت أنّه خير . رواه البخاريّ في صحيحه[5] .

وقد سبق أن أوردنا حديث تخيير ملك الموت لموسى وضرب موسى لملك الموت وقلع عينه[6]

٥ ـ لا يقبر نبي إلا حيث يموت

ممّا خصَّ الله به الأنبياء بعد موتهم أمور :

الأوّل : أنّه لا يقبر نبيٌّ إلّا في الموضع الذي مات فيه ، ففي الحديث : « لم يقبر نبيٌّ إلا حيث يموت»[7] ولهذا فإنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ دفنوا الرسول ـ ﷺ ـ في حجرة عائشة حيث قبض .

---

(١) انظر فتح الباري ٥٧٩/٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) زواه ابن سعد وابن حبان (انظر صحيح الجامع الصغير ٥٥/٣)

(٤) رواه البخاري ومسلم (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣١٦/٢)

(٥) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢٥٥/٨

(٦) انظر كتابنا عالم الملائكة من هذه السلسلة .

(٧) رواه الامام أحمد في مسنده بإسناد صحيح (انظر صحيح الجامع الصغير ٤٦/٥)

٦ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله أنَّ الأرض لا تأكل أجسادهم ، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى ، ففي الحديث « إنَّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[١] .

ويذكر أهل التاريخ قصة فيها عجب وغرابة ، روى ابن كثير في البداية والنهاية[٢]عن يونس بن بكير قال: لما فتحنا تسْتر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعبا فنسخه بالعربية ، فأنا أوّل رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا .

فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد .

قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلّها ، لنعميه على الناس فلا ينبشونه[٣] .

قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون .

قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال .

قلت : مذكم وجدتموه ؟ قال : قد مات منذ ثلاثمائة سنة .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره (انظر فتح الباري ٦/٤٨٨)

(٢) البداية والنهاية (٢/٤٠) .

(٣) وهذا يدلّ على فقه المسلمين في ذلك الوقت ، فإنّ اكرام الميت دفنه ، سواء أكان نبيا أم غير نبي ، وحفرهم القبور الكثيرة لتعميةُ أمره على الناس حتى لا ينبشوا قبره وفي ذلك إيذاء لهذا النبي الكريم ، وقد يتخذون قبره عيدا ، ويقيمون عليه مسجدا ويقصدونه بالدعاء والتبرك كما يفعل كثير من الذين ضلوا عن سواء الصراط في كثير من ديار الإسلام .

قلت : ما تغير منه شيء ؟ قال : لا إلاّ شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا يبليها الأرض ، ولا تأكلها السباع .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية .

ويبدو أن هذا من أنبياء بني إسرائيل ، وقد ظنَّ الصحابة أنّه دانيال ، لأنّ دانيال أخذه ملك الفرس ، فأقام عنده مسجونا ، ويبدو أنَّ تقدير الذين وجدوه لم يكن صوابا ، فإنَّ دانيال كان قبل الإسلام بثمانمائة سنة ، فإن كان تقديرهم صوابا فليس بنبيّ لأنّه لا نبيّ بين عيسى ورسولنا محمد عليهما الصلاة والسلام ، فيكون عبدا صالحا ليس بنبي ، وكونه نبيّا أرجح ، لأنّ الذين تحفظ أجسادهم هم الأنبياء دون غيرهم ، ويرجح هذا أيضا ذلك الكتاب الذي وجد عند رأسه ، لا شكّ أنه كتاب نبيّ ، فالأمور الغيبيّة التي تضمنها لا تكون إلا وحيا سماويّا ، وترجيحنا لكونه من بني إسرائيل لأمرين :

الأول : ظن الصحابة أنّه دانيال ، ويكونون قد علموا ذلك من قرائن لم تذكر .

والثاني : الكتاب الذي وجد عند رأسه ، ويبدو أنه كان مكتوبا بالعبرانية ، لأنَّ الذي ترجمه هو أبيّ بن كعب ، وقد كان قبل إسلامه يهوديا .

٧ ـ أحياء في قبورهم

صحَّ عن النبيّ ﷺ أنّ « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون »[١] ، وروي أيضاً أنَّ الرسول ـ ﷺ ـ قال : « مررت على موسى ليلة أسري به عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره »[٢] .

وروى مسلم عن أبي هريرة في قصة الإسراء : « وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي . . . ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي »[٣]

---

(١) رواه الجماعة عن أنس (انظر صحيح الجامع ٢/٤١٤)

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل حديث رقم (١٦٤١) وانظر شرح النووي على مسلم (١٥/١٣٣)

(٣) انظر فتح الباري ٦/٤٨٧ .